بنية النص السردي في الحكايات التراثية
(حكايات أدب الغرباء أنموذجاً)

أ. د/ خالد علي حسن الغزالي*

الملخص:

أدب الغربـاء لأبي الفـرج على بـن الحسـين الأصـفهاني المتـوفى في سـنة (سـتين وثلاثمائـة ونيّـف) للهجرة. ويعد كتاب أدب الغرباء، كتاب اختيارات في موضوع بعينه، هو أدب الغرباء.

كتب المؤلف أخبار كتابه على مرحلين:

1. مرحلة الجمع، إذ كان قد جمع هذه الحكايات والأخبار عبر مراحل حياته.
2. مرحلة التدوين، وتم ذلك في أخريات حياته، كما ذكر في مقدمة كتابه.

ولا شك أن عنوان الكتاب أدب الغرباء، يدل على وعي المؤلف برمزية الموضوع.

بنيـة الـنص السـردي: تعـد حكايـات الغربـاء وحـدة سـردية مسـتقلة، أو مجموعـة مـن الوحـدات الأدبية، على الرغم من اختلافها من حيث الشكل، إلاّ أن فكرتها ترتكز على الأحداث المتنوعة التي تقوم على أساس مشترك هو حكاية الغرباء، إبّان غربتهم، فقد تكون المادة واحدة.

الكلمات المفتاحية: (أدب – سرد – الغرباء – الأصفهاني – حكاية – تراث)

* أستاذ الأدب والنقد في جامعة صنعاء.

ABSTRACT

The literature of strangers by Abu al-Faraj Ali ibn al-Husayn al-Isfahani - who died in (Neff, sixty and three hundred) for migration .

The book of the literature of strangers, a book of choices on a particular subject, is the literature of strangers .

The author wrote the news of his book in two stages :

1. The stage of collection: He had collected these stories and news throughout the stages of his life.
2. The stage of blogging: This was done at the end of his life, as he mentioned in the introduction to his book.

There is no doubt that the title of the book, The Literature of Strangers, indicates the author's awareness of the symbolism of the subject .

The structure of the narrative text: The tales of strangers are an independent narrative unit, or a group of literary units, although they differ in form, but their idea is based on various events that are based on a common basis, which is the story of strangers during their exile, the material may be one.

التمهيـد:

التعريف بالكتاب: المضمون والمنهج:

أدب الغرباء لأبي الفرج على بن الحسين الأصفهاني المتوفى في (ستين وثلاثمائة ونيف) للهجرة[1].

أشار المؤلف في مقدمة الكتاب إلى منهجه، ووضح مضمونه، فقال: « وقدْ جمعتُ في هذا الكتاب ما وَقعْ إليَّ وعرفتهُ، وسمعتُ به وشاهدته من أخبار من قال شعراً في غُرْبَته، ونَطَقَ عمّا به من كُرْبَة، وأعلنَ الشكوى بوَجدِه إلى كُلِّ مشرَّدٍ عن أوطانه، ونازحِ الدار عن إخوانه، فكتبَ بما لقيّ على الجدران، وباح بسرّه في كل حانةٍ وبستان، إذْ كان ذلك قد صار عادةَ الغرباء في كُلْ بلدٍ ومَقْصَد، وعلامةٌ بينهم في كُلِّ مَحْضَرٍ ومَشْهَد، فأرى الحال تدعو إلى مُشاكلتهم وحَيْفَ الزمان يقودُ إلى التحلّي بسَمْتهم »[2].

أما المصادر التي أعتمد عليها في جمع مادة الكتاب، فهي:

1. الرواية الشفوية، كقوله: أخبرني، وروى لنا وحدثني.
2. الاستفادة من الكتب المدوّنة، [وقرأت في كتاب]
3. أضاف إليها حكايات وأخباراً تعد خلاصة لتجربته الشخصية في هذا الموضوع، فهو يشارك في هذه الحكايات والأخبار راوياً ومروياً له، الراوي من الداخل؛ لذا فإن عمق ودقة هذا العمل يرجع في جزء كبير منه إلى هذه التجربة، التي راكمها المؤلف عبر أطوار حياته المختلفة، والغزارة في نتاجه الأدبي.

يعد كتاب أدب الغرباء، كتاب اختيارات في موضوع بعينه، هو أدب الغرباء.

كتب المؤلف أخبار كتابه على مرحلين:

1. **مرحلة الجمع**، إذ كان قد جمع هذه الحكايات والاخبار عبر مراحل حياته.
2. **مرحلة التدوين**، وتم ذلك في أخريات حياته، كما ذكر في مقدمة كتابه.

أراد المؤلف أن تحضر شخصيته عبر مؤلفه هذا فيما رواه من الأخبار، ومنحها بعداً واقعياً من طبيعة الإنسان من خلال شريحة مجتمعية-هم الغرباء- وواقعهم المعيش، فجاء الكثير من هذه الأخبار مملوءًا بالحياة، واستثمر أداة فنية هي وجهة النظر التي أضفت على الشخصيات أصالةً وتأثيراً، وكشف غربة الشخصية وهمومها.

كما أن الدور الفني المتمثل في التمهيد للأحداث اللاحقة والتشويق لها مع التنوع في أساليب الرواية، (حدثني، ورُوى لنا، وقال لي: وأخبرنا، وقرأت، وكنت) وصياغة جملها الإخبارية.

---

(1) ينظر: معجم الأدباء، وأدب الغرباء :13

(2) أدب الغرباء: 22.

ويذكر أيضاً حكايات غرامية طبيعية، ويظهر وجهة نظره من خلال منهج الكتاب، فنلحظ أنه «**يسند لنفسه دوراً في موضوع الكتاب بشكل أو بأخر**[1]».

وقد ترابطت هذه الأخبار فيما بينها من خلال شخصية المؤلف الذي تمثلت غايته في جمع هذه الحكايات والأخبار، ورسم صورة حنين الغرباء إلى أوطانهم، وجعله أساسا يضع الحكاية في هذا الإطار.

وعليه يمكن أن نفسر المعاني والدلالات التي شكلت البنية المضمونية للحكايات في أدب الغرباء في مجموعها إلى ثلاثة محاور أساسية، هي:

المحور الواقعي للمجتمع: تمثل هذا المحور بتطرقه إلى قضايا اجتماعية عدة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالواقع المعيش.

المحور الثاني: لمضامين أخبار وحكايات الكتاب، والجانب الديني أو الروحي؛ إذ انضوى في هيكله سمة الوعظ والدعوة إلى الزهد، وثنائية الحياة والموت، وإظهار تقلبات الأيام وأثرها في حياة الإنسان[2].

مضمون المحور الثالث: التأمل والإيحاء، فقد اتسم بالمضمون التأملي أو الإيحائي[3]:

ونلحظ هنا إشارات عدة تومئ صوب جوانب تأملية إيحائية، منها:

1. أحداث وحقائق عامة.
2. ما يتعلق بالجوانب النفسية أو الفكرية، كالصوفية والزهد، والجبرية. وفيها يقف المؤلف على قمة الإيحاء جمالياً وتقنياً.

ولا شك أن عنوان الكتاب (أدب الغرباء)، يدل على وعي المؤلف برمزية الموضوع، وعلى الرغم من الاستقلالية التي يتمتع بها العنوان بحكم أولية موقعه واستقباله، فإنه يقيم تعالقه مع النص الذي يحيل إليه من خلال جزئية أو كلية تمثيلة للنص الذي يعنونه ويُشّكل مفتاحه التأويلي

«إضافة إلى أنه يمثل جماع الوحدة الدلالية الكبرى للعمل من خلال قراءة العنوان في ضوء عمله[4]».

بنيــة النص السردي:

(1) د. حسن عزالدين البناء، الشعرية والثقافة، مفهوم الوعي الكتابي، ملامحه في الشعر العربي القديم، الدار البيضاء، 2003م ، ص332.

(2) ينظر الأخبار رقم (1، 4، 8، 20، 54، 60، 63، 66)

(3) ينظر الأخبار رقم (2، 6، 7، 17، 22، 26، 33، 52، 55).

(4)د. محمد فكري، الجزار، سيموطبقاً الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، 1998م ص19.

تعد حكايات الغرباء وحدة سردية مستقلة، أو مجموعة من الوحدات الأدبية، على الرغم من اختلافها من حيث الشكل، إلاّ أن فكرتها ترتكز على الأحداث المتنوعة التي تقوم على أساس مشترك، هو حكاية الغرباء إبّان غربتهم، فقد تكون المادة واحدة، « **لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولته كتابتها ونظمها**»[1].

لذا فإن هذه الحكايات تمثل كياناً واحداً، هذا الكيان هو الذي سوف نتّكئ عليه في تعاملنا مع طبيعة العناصر العلائقية في بنية المكونات الرئيسية لهذه الاخبار والحكايات، وهي (الراوي، والوصف، والخطاب).

أولاً- الراوي: يتمتع بشخصية مميزة عن بقية الشخصيات التي تسهم في التأسيس للعملية السردية؛ إذ يقوم بدور الحاكي للأحداث التي تسرد، كما أنه قد يشارك كشخصية رئيسة، بل قد يظهر بطلاً محورياً في بعض الأخبار والحكايات. وتأتي وظيفة الراوي من خلال مستويات الرواية:

1- المستوى الأول، الراوي من الخارج:

إذ يظهر منذ البداية الراوي الأول، يليه الرّاوي الثاني، ثم تأتي شخصية أخرى تكمل الرواية، وهكذا في معظم الأخبار التي تضمنها الكتاب.

يقول: « وذَكَر سهلُ بن علي قال: حَدثني داودُ بن رشيد، قال: أخبرني العيثمُ بن عديّ، قال:...»[2].

فمن خلال عبارات الاستهلال في النص السابق نجد أن الراوي الأول قدّم الراوي الثاني، وكان دوره مركزياً من خلال الإشارة إلى حضور العملية السردية، فضلاً عن تحديده لحضور النوع؛ لأن إشاراته التقليدية - ذكر لنا-، تشير إلى عملية سردية لاحقة، فهو راوٍ خارجي غير مشارك في الأحداث.

وتكشف جملته الافتتاحية إلى تمييز النوع الحكائي من خلال هذا المستوى على لسان الراوي الخارجي، في أغلب الحكايات.

2- المستوى الثاني، الراوي من الداخل:

ويظهر فيه المؤلف شخصية مركزية يقدّم الأحداث بالضمير الشخصي، فهو راوٍ داخلي وذلك في (10) حكايات من أخبار الكتاب. وسوف نقف على بعض منها، للتأكيد والتحليل[3]:

يقول: « وكنتُ بجامع الرصافةِ في مدينة السلام يوم جمعة، وأظن ذلك في سنة إحدى أو اثنتين

---

(1)سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1988م ص7.

(2) أدب الغرباء: ص51

(3) ينظر: أرقام الأخبار: (9، 11، 12، 13، 15، 41، 64، 97).

وخمسين وثلاث مئة، فمرّتْ بي رقعةٌ قد حذف بها،... »[1].

ويقول: «قال صاحبُ هذا الكتاب: وشخصتُ إلى باجسرا في بعض المتصرفات فأقمتُ بها مدةٌ طالت في غير فائدة. ثم أردتُ الانحدار عَنْها »[2].

ففي النصين يظهر الراوي مقدماً للأحداث. مثبتاً الرواية بالضمير الشخصي، «**كنتُ، فمرّت بي وشخصتُ، أقمتُ...** ».

إن إثبات الرواية بهذه الضمائر، يزيل الإبهام ويؤكد مدى مصداقية المحكي، وواقعية هذه الأحداث، فضلاً عن أن الأخبار التي شارك فيها راوياً ومروياً، نجد أن معظمها كان يذكر ويحدد التاريخ الزمني كما لحظنا في النموذج الأول.

وبصرف النظر عن الفاصل الزمني الذي تشير إليه الأفعال الماضية إلى بعد المسافة بين زمن حدوث الفعل وزمن التلفظ.

أي إن الأحداث التي وقعت في الزمن الماضي لا تزال مدركة كما وقعت في زمنها، والأمر لا يتعلق بمراقب، يقوم بوظيفة خزان المعلومات[3] بل إننا أمام شخصية مساهمة في الحكاية، وهي إلى جانب ذلك تقوم بوظيفة الراوي.

المستوى الثالث: يقوم به عدد من الشخصيات يقوم الراوي الأول بتقديم الشخصية الثانية، وهكذا وفيه تقدم الشخصية الأخيرة أفعال داخل الحكي، وغالباً ما يمثل ما يقدمه هذا الراوي، الحكي الأساسي، بمعنى أن الراوي الأول يتوارى مفسحاً المجال أمام ما يقدمه هذا الراوي، وقد يستغرق مدًى أوسع من مساحة النص السردي[4]. ونلحظ أسلوباً مثل هذا يتبلور في كثير من الحكايات التي دونت في كتاب أدب الغرباء.

من ذلك ما أورده المؤلف من حكاية المتوكل عند خروجه إلى الشام:

يقول: «وحدثني أبو بكر محمد بن عمر قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل النحوي، قال: حدثني بعض بني حمدون عن شيوخه، قال: كنتُ مع المتوكل لمَا شخص إلى الشامِ، فلما صُرْنَا بحمصِ

---

(1) أدب الغرباء: ص33.

(2) نفسه: ص73.

(3) ينظر: نظريات السرد الحديثة، ص119.

(4)عبد الغني محمد صالح ، ينظر: بنية السرد في مقامات بدبع الزمان الهمداني رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2004م، ص109.

قال أريدُ أن (13أ) أطوف كنائس الرهبان كُلّها، والموضوع المعروف بالفراديس إذا وصَلنا إليها..»[1]

يتبين من النموذج السابق أن هذا المستوى يفتح الخطاب في كل خبر على عبارة الاستهلال (حدثني،...) وهذه الطريقة في إسناد الحدث تضع المتلقي للخبر أمام أكثر من راوٍ له، وأول هؤلاء الرواة راوٍ خارجي، يُستدل عليه بواسطة الضمير في جملة الاستهلال. ومن ثم تختفي شخصية هذا الراوي بمجرد أن يقوم الراوي الثاني، بفعل الرواية، كما أتضح من النموذج السابق.

ما الوظيفة التي يؤديها هذا الراوي، في نهاية سلسلة الرواية.

يتبلور دوره في:

1. دور داخلي مشارك في تحريك الأحداث وبلورتها.
2. يقوم بكشف الأحداث.
3. محاورات بعض الشخصيات من دون أن نلمس أدنى حضور للراوي الخارجي، سواء على سير السرد، أم على مستوى الرؤية.

كما أن مهمة الراوي الأخير – ظاهرياً – هي إبلاغ المتلقي حديث الراوي الأول.

المروي عليه: وهو يرتبط بشخص الراوي الأول، أي يرتبط أحدهما بالأخر ويوصف بأنه يمثل الجمهور الذي يتحدث إليهم الراوي الأول، صاحب الجمل الافتتاحية «**قال لي: وأخبرني، ذكر لي...**».

إن المروي عليه يقع خارج عالم السرد، أي إنه ليس له أي علاقة مباشرة تربطه بأي من متطلبات السرد، وهو مروي عليه، غامض لا توجد أية إشارة نصية لصفاته وأهميته، ولكن بناءً على تحليل دور الراوي الأول سابقاً، يعد المروي عليه الوسيط القائم بين هذا الراوي والثقافة المقدم إليها النص[2].

---

(1) أدب الغرباء: ص64، 65.

(2) ينظر: السرد في مقامات الهمداني: ص148

ثانياً: الوصف:

إذا كان السرد يشكل أداة الحركة الزمنية في الحكي فإن الوصف هو أداة تشكل صورة المكان الذي ينتج عنه بعدين هما:

- **البعد الأفقي:** الذي يشير إلى الدورة الزمنية.

- **البعد العمودي:** ويشير إلى المجال المكاني الذي تجري فيه الأحداث وعن طريق الالتحام بين السرد والوصف ينشأ فضاء الحكاية[1].

ويذهب (جيرار جنيت) إلى أنه « لا يوجد فعل منزه كلية عن الصدى الوصفي»[2].

ونروم من الوقوف عند عنصر الوصف في النص الإخباري في أدب الغرباء، بلورة دور الوصف في تكوين بنية النص، من خلال تتبع المواقع -التي يحتلها الوصف في المتن الحكائي، زد على ذلك أبرز أهمية الوصف في كشف دلالة النص.

ففي حكاية الغرباء وجد أن الوصف يحتل مواقع متعددة كما يأتي:

1. الوصف في بداية الرواية: يقوم به الراوي أو أحد شخصيات الرواة في سلسلة الرواية المتعددة في بداية السرد، ويتركز هذا الوصف أوقد يختص في:
   - وصف المكان، الموقع الجغرافي الذي يوجد فيه ويومئ إلى غربته التي توجه سلوكه.
   - وصف بعض الملامح في شخصيته أو جماعة.

يقول: « حدثني أبو الفرج عبد الله بن محمد الناقد، قال: حدثنا عمي قال: أجتزتُ بنيسابور، فرأيتُ بلداً عظيماً أهلاً. فأقمتُ به أيّاماً. فأنا يوماً في الجامع أركعُ إذ دخل فتى حسن الشباب رثُّ الحالِ عليه أثرُ الشقاء والغربة»[3].

لقد جاء الوصف في بداية السرد، فمدينة نسيابور بلداً عظيماً، كما أنها مدينة آهلة بالسكان، ثم بعد أن قام بوصف المدينة وحدد مكان إقامته ووصف حاله.

2. الوصف عند ظهور الشخصية المحورية أو الرئيسة: فمن ملامح هذا الفتى أنه حسن الشباب، وهو في حالٍ يرثى لها هكذا بدت هيئته الخارجية، وما طرأ على شخصيته، جراء الغربة وعدم الاستقرار.

لذا فإن الوصف هنا قد كشف عن البعد النفسي الذي يربط الراوي بالفتى فقد جعل من عينيه

---

(1) حميد الحمداني، ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص80.

(2) السرد في مقامات الهمداني: ص118.

(3) أدب الغرباء: ص61.

وسيلة لتتبع المظهر الماثل أمامها، وهي ترصد هذه الملامح والصفات في واقعية هذا الخبر، ومثلّت بعداً إنسانياً واضحاً، فلا يكون وصفه مجرد وصف حسي بصري آلي، بل ينطلق من واقع مشاهد.

وغالباً ما يكون هذا الوصف، يهدف لكسر حاجز التوقع، وممهداً لظهور شخصية البطل[1].

3- الوصف المتعدد المواقع:

يأتي هذا النوع من الوصف في مواقع عدة في المتن الحكائي، أي إنّه قد يتخلل أجزاء النص ويوضح معالم متعددة يكون لها دور في بلورة الجانب الدلالي لمضمون الخبر.

يقول الراوي: « حدثني أبو حمزة بن القاسم قال: حدثني رجلٌ من أهل الفسطاط قال: كنتُ....، فوقع إلينا في بعض الكتب خبرُ مَطْلَبٍ عظيم الشأن في بلاد اليونانية،... إلى أن يقول: وتزودنا وسرِنا بين آكام وجبالٍ ورمالٍ خِفنَاها، حتى إذا مضتْ ثلاثةُ أيَّام أشرفْنا على سورٍ عظيمٍ منقورٍ من حجرٍ أبيض كالثلجِ فيه تَلميعُ أسود كالجنازير.... ».

وقد يأتي أيضاً هذا الوصف من قبل البطل عند حديثه عن نفسه نثراً أو شعراً، وقد يكون مثل هذا الوصف بمثابة خاتمه للخبر، أو مستأنفاً لأحداث جديدة تمهد للحدث الرئيس.

يقول: « خرجتُ هارباً من الإملاقِ، وتضايق الأرزاق، فعُدِل بي عن السداد، وتهْتُ في البلاد، وبلغ بي الدهرُ إلى هذا القصر:

فيـــا ليـــتَ شـــعري مـــتى ينقضـــي ... عَنـــائي وتُكشـــفُ عنـــي المحـــنْ
شـــريداً طريـــداً قليـــلَ العـــزا ... ســـحيق المحـــلّ بعيـــدَ الـــوطنْ

فاستظرفنا أن تكون الغُربةُ بلَّغَتْ إنساناً إلى ذلك المكان»[2].

إن المتتبع الفاحص لمواقع هذا الوصف يجد أنه قد تخلل مواقع متعددة ففي الموقع الأول، جاء لوصف (الكنز)، إذ وصفه بعظيم الشأن، ثم يتوالى السرد، نقف على وصف في موقع أخر، يختص بوصف الطريق التي سلوكها، إذ هي مخيفة، ويتخللها آكام وجبال ورمال...

وعبر تولي الأحداث وتتابعها تمهيداً للحدث الرئيس للخبر ظهر وصف ليس في سياق النثر بل في سياق الشعر، فضلاً عن أنه لا يتعلق بالمكان ولا بالشخصيات، ولكنه يختص بوصف الذات أو النفس قدّمه البطل المحوري في سرد الحكاية، فوصف نفسه، بأنه شريداً، طريداً، قليل العزاء...

فقد أختزل بهذا الوصف الذاتي حالته مركزاً الدلالة إزاء رغبته التخلص من هذا الوضع، والانتقال إلى حال أفضل في وطنه وبين أهله.

---

(1) آمنة يوسف، ينظر: تقنية السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار ، سوريا، ط1، 1997م،ص95

(2) أدب الغرباء: 68، 69

لذا فإن هذا الوصف متّدرج المواقع أو المتدرج للمواقع في متون الأخبار يشير إلى تفسيرات محتملة بما يبعد فكرة وجود هذا الوصف، كونه استراحة في توالي العملية السردية.

وطبقاً لمجريات التحليل السابق المعزز بالشواهد من حكايات الكتاب، نلمس أن الوصف سواء وصف المكان أو وصف الشخصيات أو وصف الذات. نخلص إلى أن لهذا الوصف وظائف هي:

1. **الوظيفة التفسيرية الدلالية:** يقوم الوصف فيها بالكشف عن الأبعاد النفسية والاجتماعية للشخصيات، مما يسهم في تحليل وتفسير سلوكها ومواقفها المختلفة.
2. **الوظيفة الجمالية:** وفيها تزين الجمل النثرية والشعرية بالمحسنات البديعية والبلاغية، كما لحظنا في النماذج المذكورة، مثل السجع، والتشبيه، والاستعارات.
3. **وظيفة إيهامية:** يقوم الراوي هنا، بشد المتلقي إلى عالم حكيته التخيلي، موهماً إياه بحقيقة وواقعية ما يقوم به من وصف شخصيات وأحداث روائية[1].

ثالثا: الخطاب:

إن تحليل البنية السردية ليست القصة، وإنما هو السرد بوصفه (خطاباً يعيد تقديم حدث أو أكثر)[2].

لذا فإن الخطاب السردي سيكون (الكيفية التي تُروي بها القصة)[3]. وانطلاقاً من المقولات الآتية: «أساليب القص، الرؤية، الزمن» **التي** تشكل المكونات الأساسية لأي خطاب سردي. وهذا هو الأساس الذي سوف نبني عليه دراسة الخطاب السردي في حكايات أدب الغرباء.

أساليب القص: تتعدد أساليب أو صيغ العرض والسرد، من خلال أدوات الاستفتاح، لكل مهنا خاصية تعطيها صفتها، وتضع لكل صيغة مجالها، إذ لا تسمح لها بالتداخل مع أي صيغة أخرى – على المستوى الظاهر على الأقل – سوف نحاول هنا أن نرصد أدوات كل صيغة من خلال:

-أدوات الاستفتاح: تفتتح (38) حكاية وخبر من الحكايات التي احتوها الكتاب بالصيغة التمهيدية (حدثني، وحدثنا) و(15) حكاية وخبر بالصيغة التمهيدية (قال) ، و (3) حكايات بالصيغة التمهيدية (ذكر) وخبر واحد في الصيغ التمهيدية (حُكي وأخبرنا وروي لنا).

أمَّا الأخبار والحكايات الواردة والمثبتة بالضمير الشخصي، نحو: (قرأت، وقال صاحب الكتاب (7) حكايات و (4) أخبار بالضمير (كنت، وخرجت).

---

(1) ينظر: تقنية السرد في النظرية والتطبيق: ص96.

(2) مرسل فالح العجمي، السرديات مقدمة نظرية، حولية الأدب والعلوم الاجتماعي، جامعة الكويت 2004م، ص20.

(3) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص45.

وجد أن الصيغة التمهيدية (حدثنا، وحدثني، وقال لي) وسواء أكان المروي له معبراً عنه بضمير الجماعة أم بضمير المفرد، فإن هذه الصيغ تشير إلى أن الحديث اللاحق لها يسند إلى راوٍ معلوم.

هل تؤدي هذه الصيغ وظائف تقنية في السرد؟

1. تنظيم عملية الرواية والتلقي معاً.
2. تلقى إلى مروى له مجهول.
3. تؤكد على الطابع الحكائي السردي للحكايات.
4. تسمح للراوي أن يتقدم نحو بناء عمله السردي بحركة تصاعدية في الزمن، انطلاقاً من الماضي البعيد نحو الحاضر[1].

وبعد الاستفتاح والدخول – الذي تهيئ له عبارة البداية إلى عالم السرد، تتواتر الأفعال الماضية المعبرة عن الحركة، وكلها أفعال تدل على حركة الراوي بين الفضاءات، أو تدل على أحداث يتعرض لها في حركته هذه. ولمعرفة وظائف الصيغ وحركة الأفعال، نقف على الشواهد الآتية:

يقول الراوي :« حدثني أبو الحسن أحمد الورَّاق قال: أخبرني عمّي، قال: سافرتُ في طلبِ العلم والحديث، فلم أدَعْ بخرسان بلداً إلاَّ دّخَلْتُه. فلما دخلتُ سَمَرْقَنْد رأيتُ بلداً حسناً أعجبني، وتمنيتُ أنْ يكون مقامي فيه بقيّة عمري..» [2]

أشرنا سابقاً إلى الوظائف التي تضطلع بها صيغ الاستفتاح، ثم يتأسس بدأ الأحداث، من خلال المشاهد المكونة للسرد وتوافقها التركيبي، إذ تبدأ بالفعل الدال على السفر.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن السفر أو الرحلة تحضر بكل أشكالها وأسبابها المختلفة في حكايات الغرباء، إذ ترتبط معظم الأخبار والحكايات برحلة سفر، من مكان إلى أمكنة أخرى لأغراض مختلفة، كالحج، وطلب العلم، والتجارة، والهروب من الواقع، أو اللهو والنزهة.

ثم تتوالى الأفعال الدالة على حديث السارد عن نفسه، «**دخلتُ، ورأيتُ، وتمنيتُ..**» .

وتكون هذه الأفعال حافز أساسي للسرد، تمضي به نحو الذروة، وترسم طبيعته، كما أنها تساعد في توسيع أفق السرد بما ينتج عنها من أفعال أخرى وثيقة الصلة بنفسية الراوي، تدل على الأثر المنعكس للحركة عليه، **يقول: « فأقمتُ أياماً، وعاشرتُ من أهله جماعة»** فإذا كان الفعل (أقمتُ) يشكل فعل الحركة في المقطع السردي، فإن الفعل (عاشرتُ) يشكل الفعل الانعكاسي لفعل الإقامة،

---

(1) ينظر: بنية السرد في مقامات الهمداني، ص98.

(2) أدب الغرباء : 86.

ويبيّن الملابسات المحيطة به وأثرها في نفس الراوي.

وفي بنية الحكايات في أدب الغرباء، تظهر أدوات معينة في عرض هذه الحكايات والأخبار، وتحدد مصدر الخطاب ومتلقيه، وتبعده عن تدخلات الراوي، ونذكر منها:

1- المعينات الحوارية:

يتجلى المشهد الحواري في حكايات أدب الغرباء بوساطة صوتين تتبادلان الحكي، بحسب تبدل الإسناد بين ضمير الغائب المضمر، وضمير المتكلم إلى فعل القول في ثنائية (قال: قلت):

فالفعل الأول (قال) والضمير المضمر فيه العائد على الغائب، يدلان صراحة - على أن الكلام الآتي بعدهما منسوب إلى الشخصية التي يتعزر حضورها بمجرد أن يبدأ حديثهما بضمير المتكلم، وتراجع الراوي إلى موقع المتلقي المباشر للحكي، وهو بدوره يبادل الشخصية الحكي مفتتحاً حديثه بالفعل (قلت):

يقول الراوي: «...، إذ مرّ بي غلامٌ أمردٌ كا لقمرِ الطالع فقلتُ: يا فتى، وحدك في مثل هذا الموضعِ؟ فقالَ: ما بقلبي حملَني على ركوب الغَرَر، فاباللهِ عليك إلاّ عرّفتني هل مضى بك قومٌ مِن الأتراكِ ومعَهم مغنّية على حمار، عليها كساء تاريخي؟ فقلتُ: نَعم، هُمْ في ذلك البستانِ، ولكن عرّفني تريدُ الدخول عليهم؟ فَارتَعد رعدةً عظيمةً، ولم يزل لونه يتغيّر حتى سكن..»[1].

عند امعان النظر في مجريات الحوار في النص، نجد أن هذا الحوار بين الصوتين، لعب دوراً مهماً في كشف غربة الإحساسات، بفعل تأثير الزمن في النفس والبحث عن المفقود، من خلال صور تدخل في دائرة ضباب التلاشي، بما يمكن أن يكون صدمة في النفس، وهذا ما عبر عنه المشهد الحواري الأخير.

قال الراوي: «... **وألم أزل أُسلّيه وأُشجعهُ، وعلمتُ أنه** يهوى المغنيّة وأنها قد تَرَكَتْهُ وخَالفتهُ...»[2]

إن تأطير هذا المشهد بهذه الحالة المنكسرة، وتحديد الخطوط الرئيسية لبواعثها، وإبراز هذه الصورة المظلمة التي تسكن نفس الفتي، هي من فعل الحوار ووظيفته.

2- المعينات الخطابية:

ففي كتاب أدب الغرباء نجد أن لكل خطاب عدد من المعينات التي تحدد نوعيته وانتماءه

---

(1) أدب الغرباء: ص98، 99.

(2) أدب الغرباء: ص99.

الصيغي، فقد وجدنا في مواقف الوعظ والدعوة إلى الزهد تواتر عدد من أساليب النداء، والاستفهام والدعاء. يقول الراوي: «...، يا ابن آدم ما أظْلمك لنفسَك! آلا ترى إلى آثار الأولين، فتعْتبر، وإلى عاقبة المنذرين فتزدجر.» [1].

الرؤيـــة:

الرؤية، البؤرة، وجهة النظر، كل هذه مصطلحات نقدية، تُركز على الراوي الذي من خلاله، تتحدد (رؤيته) إلى العالم الذي يرويه بشخصياته وأحداثه. وعلى الكيفية التي من خلالها في علاقته بالمروي له، تبلغ أحداث الحكاية أو القصة إلى المتلقي أو يراها[2] وقبل الولوج إلى تحليل أقسام الرؤية السردية، التي بُني عليها النص السردي في كتاب أدب الغرباء، بداية تجدر الإشارة إلى أن بنية النص السردي في حكايات وأخبار أدب الغرباء، تكاد تنحصر أغلبها على رؤيتين سرديتين هما:

1. الرؤية الخارجية.
2. الرؤية الداخلية.

وتعد الرؤية الأولى، أكثر استحواذاً على البنى السردية للأخبار؛ لأن نسبة الحضور التي تشكلها الرؤية الخارجية بالقياس إلى إجمالي عدد الأخبار التي احتوها الكتاب.

ولمزيداً من بلورة هذا العنوان، سوف نقف على نماذج من النصوص، كشواهد على الرؤيتين:

1- الرؤية الخارجية: وتنطلق من الراوي الذي تكون معرفته أقل من معرفة الشخصيات الروائية ، ويستعين بالوصف الخارجي، وبضمير الغائب (هو) فهو شخصية غير مشاركة في صنع الحدث، لذا فقد اعتبر خارجياً، يروي عن غيره بأسلوب السرد الموضوعي، الذي يعني بقاء الراوي خارج الفعل أو الحدث المعروض، وروايته مصحوباً بفاعلية المحركين له[3].

ويبدو هذا الوعي أحياناً غير قادر على معرفة الأفكار الداخلية للشخصيات، أو تأويل الظواهر الملاحظة، وبالتالي يصفها انطلاقاً من مظاهرها الخارجية.

---

(1) أدب الغرباء: ص87.

(2) ينظر: تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص284.

(3) أمنة يوسف وآخرون، ينظر: النقاد يصنعون موجة للبحر، اتحاد الكتاب اليمنيين، صنعاء 2008م ص117.

يقول الراوي « ...، ثم خَلَوْنا براهبِ مِنْ قُوّام الكَنِيسَة، فَلم يَزلْ المتوكل يسألهُ عن حال كلّ جاريةٍ وغُلام يمرّ به، واسمه ونسبه، وهو يمشي إذْ لَمح كتابةً على حائط الكنيسةُ، فَقَربْنا من ذلك...»[1].

ففي المقطع السردي، نلحظ أن الأفعال التي تقدمّها الشخصيات، وأن وعي الراوي غير محدد، فهو يتتبع هذه الأفعال ويسجل حركاتها.

كما أن هذا الوعي أحياناً غير قادر على معرفة الأفكار الداخلية للشخصيات، فهو يراقب شخصية المتوكل، من دون أن يعرف لماذا دخل هذه الكنيسة، وما هي الدوافع لهذه الأسئلة، عن حال الغلمان والجواري.

لذا فإن الرؤية الخارجية كانت في عملها هنا بما يشبه عمل العدسة، إذ إنه لا يستطيع النفاذ إلى ذهن شخصية (المتوكل) لتسجيل أسباب دخوله الكنيسة.

كما أنه لم يسجل الحال الشعورية للراهب حين استقبل أسئلة المتوكل، واكتفى برصد ما تلفظ به ووصف مجمل لما قام به من حركات داخل الكنيسة.

يقول «**فَنَعر المتوكّلُ وقال لي: ويلك! أميّت أنتَ**؟ فانتبَهْتُ، وعلمتُ أنّي قد أخطأتُ في تَرْك مساعَدَتَه. فأخذتُ رطلاً، فلم أزل أشربُ حتى لحقتُه..» [2].

كما نلحظ أن الراوي ليس مهيمناً على حكايته هيمنة تتحدد ابتدءًا في أسلوب السرد الموضوعي الملتزم بأحادية الضمير المستعمل في الرواية، بل هو راوٍ يسمح للشخصية المحورية في الحكاية أن تتناوب معه في الرواية عن تجربتها.

الرؤية الداخلية:

يظهر فيها الراوي شخصية مشاركة في صنع الحدث، لذا تأتي معرفته مساوية لمعرفة الشخصيات الأخرى في بنية السرد، فلا يقدم لنا أي معلومات أو تفسيرات إلا بعد أن تكون الشخصيات الأخرى نفسها قد توصلت إليها[3].

ومن هنا سميت هذه الرؤية بالداخلية؛ لأن الراوي يقع داخل الفضاء الحكائي المسرود على لسانه، يشارك فيه ويصاحب شخصياته، أي يكون معهم مسهماً في النصوص بعجلة السرد، ومستعيناً غالباً بضمير المتكلم (أنا) الذي ينطلق، من أسلوب السرد الذاتي، فيكون ما يرويه بمثابة مذكرات شخصية اعترافية، يوهمنا الراوي من خلالها أن ما يرويه لنا هو تجربة شخصية مدمجها بالفعل

---

(1) أدب الغرباء : ص65.

(2) نفسه.

(3) ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي: ص47.

وبشخوصها الواقعين.

وطبقاً لهذا التوصيف، إزاء الرؤية الداخلية، لنأخذ هذا النموذج الذي يحكي فيه المؤلف قصة خروجه مع أبي الفتح.

يقول: « **وخرجتُ** أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله، ماضَيْن إلى ديرة آل الثعالب، في يوم من سنة خمس وخمسين وثلاث مئة للنزهة ومُشاهدة اجتماع النصارى هناك، فبينما نحن **نطوفُ الديرَ، ومعنا جماعةٌ من أولاد الكتّاب النصارى وأحداثهم، وإذا بفتاة كأنّها الدينار** المنقوشُ كما يُقال، ...، فضربتَ بيدها إلى يد أبي الفتح، وقالتْ: يا سيّدي، تعال أقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط بيت الشاهد. فمضينا معها، وبنا من السرور بها **وبظرَفها ملاحةِ مَنْطِقها ما الله به عالم**»[1].

ففي النص نلحظ ظهور صفات الرؤية الداخلية. إذ نجد الراوي يشارك الشخصيات في التحرك صوب الحدث،.والمصاحبة التي دفعت النقاد يسمون هذه الرؤية أحياناً (الرؤية مع)، وذلك أن الراوي بضمير المتكلم –كما أشرنا سابقاً- يكون مشاركاً للشخصيات الأخرى في صنع الحدث، ولذلك هو مثلهم في العلم، أي إن معرفته تساوي معرفتهم، وهو مثلهم يتلقى المعلومات الواقعة في عالمه الحكائي.

ففي المشهد الحكائي، السابق تلقى الدعوة من الفتاة لقراءة الشعر المكتوب، مثل أي شخصية أخرى.

وقد تكون الذكرى المنهمرة على لسان الراوي بضمير الأنا في الرؤية الداخلية هذه موقف عابر، أو لحظة انفعالية، تنسجم ومفهوم الواقع الذي يعيشه أو التجربة التي يمر بها، فيتم التعبير عنها من خلال الحدث أو الموقف أو الانفعال، فمن المواقف التي نجدها في نهاية الحكاية السابقة، بعد التعارف بينهم، **يقول:« وقلتُ فيها هذه الأبيات، و أنشدتها إيّاها ففرحتْ:**

مـــرّتْ بنـــا [فـي الـــدير] خَمْصَـــانهْ ... ســـــاحرةُ النـــــاظرِ فتّانـــــهْ
أبرزهـــا الرُهْبـــانُ مـــن خِـــدْرِها ... تعظّـــــم الـــــدير ورهبانـــــه
مـــرّتْ بنـــا تَخْطـــرُ فـــي مَشْـــيها ... كأنمـــــا قامتُهـــــا بانـــــهْ[2]»

هكذا كانت ذكريات الراوي بضمير المتكلم، فقد حمل هذا الضمير تقنية سردية توهمنا بأننا أمام سيرة ذاتية واقعة بالفعل.

---

(1) أدب الغرباء: 34.

(2) أدب الغرباء :36.

تبدو الرؤية الداخلية محملة أيضاً بمواقف للراوي، يمكن أن تكون اجتماعية أو سياسية ذات أبعاد عميقة، ودالة جميعها على المؤلف المختبئ خلف قناع هذا الراوي بضمير المتكلم صراحة (أي على مستوى المنطوق السردي) أنها واقعية، حدثت بالفعل.

الزمــن:

يظهر من الطابع العام لحكايات وأخبار الغرباء أنها لا تلتزم بالترتيب الزمني للأحداث، إلاّ أن هذا الحكم المسبق لا ينفي وجود عدد قليل من هذه الأخبار قد وضع لها تاريخ زمني وبشكل تصاعدي.

هذه الأخبار تكاد تنحصر في حكايات وأخبار الشخصيات التاريخية، مثل: الخلفاء والأدباء، فضلاً عن أخبار المؤلف نفسه في مشاركته في بعض الأحداث. والحكايات التي احتواها الكتاب.

عند النظر إلى زمنية المقاطع التي تُقدّم الأحداث في الأخبار، نجد أنها تتوزع على موقعين زمنيين، هما: (الماضي) و(الحاضر)، أي إن حركة الزمن في الأخبار، تبدأ من الماضي وتنتهي بالحاضر؛ إذ يعود بالزمن إلى الماضي البعيد عن نقطة انطلاق السرد، إلى زمن الشباب، ليقدم للمتلقي أحداثا، يعود السرد إلى الزمن الحاضر، زمن المشيب، وهو زمن التلفظ في الوقت نفسه.

يقول الراوي: « ...، وكنتُ في أيّام الشّبِيَبةَ والصِبا ألِفْتُ فتىً من أولادِ الجند، في السنةِ التي توفى فيها مُعِزُّ الدولة [وولي بختيار]،...، وكان الفتى في نهاية حُسن الوجه وسلامة الخلقِ وكرم الطبع»[1]

يشكل المقطع السردي استعادة من الزمن الماضي، حول تأريخ الشخصية وعلى لسانها.

وبعد أن تنتهي الاستعادة التي شكلها المقطع السابق، نجد أن السرد ينتقل إلى الحاضر.

يقول الراوي: « ...، ثم لم تمض إلاّ مُدَيْدَةٌ حتى قُبضَ على أبيه فَهربَ، فَاحْتَاج إلى الاستتارِ، فلم يأنسْ هو وأهله إلاّ بكونه عندي. فأنا على غفلةٍ إذ دخل في خُفٍّ وازار، وكادتْ والله مرارتي تنفطر فرحاً، فتلقيتُه أقبّلُ رجلَيْهِ وهو يضحكُ...»[2].

نجد أن الانتقال إلى الحاضر يستشرف المستقبل، ويحدد غايات يتوقع تحققها عند نهاية السرد ووقوع الأحداث.

يقول: « ...، وبِتْنَا في تِلكَ الليلةِ عَروسَيْنْ لا يعقِلُ سُكْراً واصطبحنا فقلتُ هاذه الأبيات:

بِـــتُّ وبـــاتَ الحبيـــبُ نَـــدْماني ... مـــن بَعْـــدِ نـــأيٍ وطـــولِ هجـــرانِ
نَشْـــــرَبُ قفْصِـــــيَّةٌ مُعتّقـــــةً ... بحانـــــة الشـــــط منـــــذ أزمـــــانِ

(1) أدب الغرباء: 83
(2) نفسه.

وكُلّمـــــا دارتِ (30أ) الكـــــؤوسُ لنـــــا ألْثَمَنـــي فـــاهُ ثـــم غنـــاني[1]»

وبعد وقوفنا على هذا النموذج، نكون قد قدمنا فكرة موجزة عن الكيفية، التي جاءت بها الحكايات في مفارقاتها الزمنية.

إن مضمون الحكايات والأخبار عموماً، - ومهما اختلفت سياقاتها- ، إلا أنها تلتقي في النهاية، لتؤدي هدفاً وغاية أو وظيفة واحدة، من خلال تحريك الأحداث حتى النهاية ،ليحقق المؤلف غايته المنشودة، من دون الاتكاء على أي ترتيب زمني محدد، تصاعدياً أو تنازلياً، وهذا ما أكده محقق الكتاب[2]، لذا ينبغي أن نتجنب الحديث عن أسلوب ترتيب زمني أكان تصاعدياً أم تنازلياً انتهجه المؤلف، في أدب الغرباء. لماذا التزم هذه المنهجية؟

نعم إننا نجد في بعض الأخبار إشارات زمانية، إلاّ أنها لم ترق إلى درجة الالتزام المنهجي في معظم الأخبار أو كلها.

ولعل مرّد ذلك إلى أن أسماء الشخصيات المشاركة في هذه الأحداث شخصيات حقيقية من دمٍ ولحم، لذا فقد حرص المؤلف على ذكر تاريخ توثيقي لها، يشير إلى زمن الوقائع ، **يقول الراوي**: « **وكان هارون الرشيد أنفذ إسحاق بن عمار** إلى ملك الروم في السنة التي نزل فيها الرقّة»[3].

وفي الخبر الذي يحكي فيه قصة القصر الذي بناه معزّ الدولة بالشمّاسية، يقول: « ..، ثم عُدْتُ إليه في سنة اثنتين وستيّن وثلاثمائة فرأيتُ ما يعتبر به اللبيب...»[4].

لذلك فإن مثل هذه الإشارات التاريخية التي يتضمنها النص وينزل فيها الأحداث والشخصيات، لا تمثل حكماً عاماً في أخبار الكتاب.

اتضح أن المؤلف لم يعتمد إيراد حكايات وأخبار الكتاب وفق التتالي الزمني، وكأن ذلك يوحي بنزوع خفي منه إزاء محاكاة الزمن محاكاة لا تستقص فيها جميع الأحداث، بل أوردها في أجزاء منفصلة، تلك التي لها تعلق بموضوع كتابه، فتعقب تلك الأخبار التي شاكلت موضوع الغرباء في جوانب - حياته المتعلقة- بموضع الغربة والحنين، فكانت حكايته تنتمي إلى أزمنة متفرقة تربط بينها وحدة الغرض، إلاّ أن تلقائية السارد قد تتأثر بالترتيب الزمني، وهو يروي أحداث ماضية، فقد يخترق هذه التلقائية؛ ليذكر أحياناً تاريخاً ولاسيما تلك الأخبار التي تتعلق بالأحداث السياسية والتاريخية، التي شارك فيها

(1) أدب الغرباء: 11.
(2) نفسه.
(3) نفسه: ص54
(4) نفسه: ص68.

أعلام، يتمتعون بالمكانة السياسية أو الأدبية، حسب تداعي الذكريات في خطها الزمني[1]؛ لأن الذي يجمع الأخبار لا يهمه ذكر تاريخ الحدث، وإنما يهمه أقوال الشخصية وأفعالها في موقف معين، وفي سياق علاقة مع أشخاص آخرين.

(1) ينظر: أدب الغرباء الأخبار رقم (10، 12، 13، 64، 67).

قائمة المصادر والمراجع:

1. د. صلاح الدين المنجد، أدب الغرباء، لأبي الفرج الأصفهاني، نشر مخطوطه فريدة، بيروت دار الكتاب الجديد1972م.
2. د.حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط11991م.
3. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1998م.
4. آمنه يوسف، تقنية السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار، سورياط11997م.
5. محمد القاضي، الخبر في الادب العربي، دراسة في السردية العربية، منشور كلية الأدب منونه1998م.
6. مرسل فالح العجمي، السرديات، مقدمة نظرية، حولية الأدب والعلوم الاجتماعي، جامعة الكويت 2004م.
7. عبد الغني محمد صالح، السرد في مقامات الهمداني، جامعة عدن2004م.
8. د. محمد فكري الجزار، سيموطيقيا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1998م.
9. د. حسن عزالدين البناء، الشعرية والثقافة العربية، مفهوم الوعي الكتابي، الدار البيضاء 2003م.
10. مجاهد عبد المنعم، المتنبي والاغتراب، مكتبة الأنجلو، مصر،1987م.
11. ياقوت الحمودي، معجم الأدباء.
12. والاس مارتين، نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة قاسم، الهيئة العامة لشئون المطابع،1997م.
13. أمنه يوسف وآخرون، النقاد يصنعون موجة للبحر، اتحاد الكتاب اليمنيين، صنعاء 2008م.